

حياة الألفاظ

جاء الإسلام وجاءت بمجيئه أشياء وأفكار لا بد لها من ألفاظ للدلالة عليها ، وقد كانت في اللغة يومئذ ألفاظ كثيرة إلا أنها كانت في الجاهلية تصور أموراً خاصة ، غريبة عن المعاني التي أحدثها الإسلام ، فما الخيلة ، هل تعجز اللغة عن الإفصاح عن الأفكار الحديثة ، أم ان اللغة كانت لا يعوزها شيء من المرونة ، بحيث يستطيع أهلها أن يتصرفوا فيها حتى يسدوا حاجاتهم .

نشأ الإسلام ونشأت معه أفكار الإيمان والصلاة والركوع والسجود والصيام والحج والزكاة والكفر والنفاق والفسق وأشباه هذه الكلمات التي سماها علماء اللغة : الألفاظ الإسلامية ، ولم تكن لهذه الألفاظ في الجاهلية المعاني التي يريد بها الإسلام ، فما الذي صنعتها اللغة حتى استطاعت ان تصور الأفكار التي خلقها الإسلام .

سلكت اللغة في نشأة الإسلام الى الدلالة على معانيه الحديثة مسلكين . في مسلكها الأول كانت تنقل ألفاظاً عن مواضع الى مواضع على نحو ما أشار اليه علماء العربية مثل ابن فارس ونظرائه ، فمن الأفكار التي جاء بها الإسلام الكفر ، فالإسلام لم يخلق لفظ الكفر وإنما حوّل معناه الجاهلي من وجه الى آخر ، فالكفر في الجاهلية كان الغطاء والستر ، فحوّله الإسلام من معناه في الأصل الى معنى شرعي وهو ضد الإيمان ، وما يقال في الكفر يقال في بعض الألفاظ الإسلامية ، ولا حاجة بي الى الاستقصاء في ذكرها ، وإنما غابني ضرب المثل لاغير .

والألفاظ التي نقلت عن مواضع الى مواضع في الإسلام كانت حينئذ نمو مادة معانيها وتوسع دائرة مدلولاتها ، فلم تمت معانيها القديمة دفعة واحدة ، فالإيمان مثلاً كان معناه في الجاهلية التصديق ثم أطلق في الإسلام على معنى شرعي معروف فلم يمت معنى الإيمان الجاهلي وإنما اتسعت هذه المادة ودلت على معنى حديث ، وحينئذ كانت هذه الألفاظ تموت معانيها القديمة دفعة ، فلا تحفظ لها اللغة إلا المعنى الحديث الذي أطلق عليها يوم نقلها عن موضع الى موضع ، من هذا القبيل الصلاة ، أصل

الصلاة في الجاهلية الدعاء ولكن الاسلام أطلق هذا اللفظ على معنى شرعي معروف ، فاذا قلنا : فلان يصلي ، فان الذهن يندفع من فوره الى المعنى الذي أدخله الاسلام على الصلاة ، ولا يحظر بالبال المعنى الذي كان للصلاة في الجاهلية ، وهو مجرد الدعاء . أما في المسلك الثاني فقد كانت اللغة في الإعراب عن الأفكار الحديثة تخلق ألفاظاً خلقاً بدلاً من ان تنقل ألفاظاً قديمة عن موضع الى موضع ، من هذا القبيل قولهم في صدر الاسلام لمن أدرك الاسلام من أهل الجاهلية : فلان مخضرم ، من خضرت الشيء اذا قطعته ، فاللغة خلقت هذا اللفظ وخلقت له معنى خاصاً لم يكن له من قبل . هذا ما يتعلق بميلاد الألفاظ ولكن الألفاظ تموت كما تولد ، فلنتظر في موتها بعد أن نظرنا في ميلادها .

تموت الألفاظ لأن المعاني التي كانت تدل عليها قد ماتت ، فلا يبقى لهذه الألفاظ وجد ، فمن هذا الشكل ألفاظ يموت معنى واحد من معانيها وتبقى لها معانيها الثانية ، فالمربع في اللغة ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية ، فهذا المعنى الذي كان للمربع مات في الإسلام ، وبقيت لمادة المربع المعاني الأخرى مثل المكان الذي ينبت نبتة في أول الربيع وغير ذلك .

ومن هذا الشكل ألفاظ تموت معانيها كلها ، فتموت معها ، مثل الألفاظ التي تدل على أنواع من السلاح والثياب والآلات والمآكل والمشرب وأشياء هذه الأمور ، فكثيراً ما نرى مثلاً في مطالعاتنا لفظ القوي ، وهي ثياب بيض ، ولكن من ذا الذي يعرف صفات هذه الثياب وأشكالها كلها ، فلفظ القوي زال في عصرنا لزوال الشيء الذي يمثله ، وبقي هذا اللفظ محفوظاً في كتب اللغة او في مواظنه من كتب الأدب والتاريخ ، فمثل هذه الألفاظ لم يبق لها إلا قيمة تاريخية ، فكثير من الاسماء زالت مسمياتها فزالت بزوالها ، وقد يقع ان علماء الآثار يكشفون في بطون الأرض عن أشياء فيضعون لها أسماء من عندهم لأنهم مجهلون الأسماء التي كانت تطلق عليها في القديم . وتموت الألفاظ أيضاً لأنها قامت مقامها ألفاظ تدل على أفكار أثبت ، انا نجد في الشعر الجاهلي ألفاظاً من هذا النوع ، كانوا يقولون : غدائرنا مستشزرات ،

أي مرفوعات أو مرتفعات ، ولكن هذا اللفظ مات لأنه قام مقامه لفظ آخر عني عليه ، ومن هذا القبيل لفظ الابتشاك الوارد في شعر المتنبي ، فقد مات هذا اللفظ وقام مقامه لفظ آخر وهو الكذب ، والشواهد في هذا الباب كثيرة .

و كيف تموت الألفاظ في اللغة ، فالجواب عن هذا الأمر أنها تستعمل في عصر من العصور كالعصر الجاهلي مثلاً ، ثم يأتي عصر آخر كعصر الاسلام ، فيقل استعمالها فيه ، ثم يأتي عصر آخر ، كالعصر الأموي ، فلا يحفظها فيه إلا أفراد قلائل ، ثم يأتي عصر آخر كالعصر العباسي يذهب فيه الأفراد الذين كانوا يحفظونها وتذهب الألفاظ القديمة الميتة بذهابهم ، وتبقى محفوظة في كتب اللغة كما تحفظ الآثار القديمة في دور التحف . وقد يقع ان ينشأ كتاب وشعراء فتدلم أذواقهم على لفظ ميت ، فيستخرجونه من مدافنه ، ويقذفونه على أطراف أقلامهم ، فينتفض هذا اللفظ وتعود إليه حياته ، من هذا الضرب ألفاظ كثيرة كانت ميتة ثم أحيها في عصرنا كبار الشعراء والكتاب . فاللغة لا تثبت على حال من الأحوال ، فمرة تخلق الفاظاً لأفكار حديثة ، ومرة تنقل ألفاظاً عن مواضع الى مواضع ، فاما أن تضيق مادة معاني الألفاظ المنقولة واما ان تنسع آفاق هذه المعاني ، ثم يجيء وقت يزول فيه فكر من الأفكار ، فيزول بزواله اللفظ الذي يدل عليه ، أو يجيء وقت ينبش فيه لفظ ميت من مدفنه ، فهذه أمور تثبت لنا استعداد اللغة للحياة ، فهي لا تعرف الجمود ، وهي تتبع أطوار العصور وتنقلب فيها ، ومثلها في ذلك كمثل المخلوقات الحية في الطبيعة ، فكما ان هذه المخلوقات تولد فتعيش أو تموت ، فكذلك الألفاظ فانها تولد فتعيش أو تموت ، خاضعة في ميلادها وفي عيشتها وفي موتها لبعض القوانين التي تخضع لها المخلوقات في الطبيعة ، مثل قانون الانتخاب الطبيعي ، أو تنازع البقاء أو النشوء والتحول !

شفيق جبري

— 2006 —